

... والقبليّة النقدية أيضاً !

بقلم عبد الحّيّ رباب

والمعداوي ليس من ذلك النوع الذي يعرض نفسه ، او يتملق مخلوقا ، او يلقي بنفسه في مزدهم طلاب الحاجات والرغائب ، لانه كان بالامس القريب شاهرا قلمه في وجه هؤلاء ، ولان تكوينه النفسي والمزاجي لا يقبل هذا السلوك الشائن ولو التصقت يده بالتراب .

واذا اضفنا الى ذلك حساسيته الرهيفة ، ومزاجه السوداوي عرفنا ان نفسه قد اقصمت بالمرارة والالم وزهد في الحياة والخلود وندب حظ الانسانية التي تقوم على اقتناص الفرص والاتجار بالمبادئ ، ومن هنا اتشحت فلسفته بالسواد ، ففدا ساخرا من الحياة والاحياء ، يقف فيهم موقف التفرج ، اذ ضمته بهم جلسة او منتدى ، واذا كان منفردا فانك لتعجب كل العجب حينما ترى شابا فارح الطول ، وضيء الوجه ، ولكنه مقطبه ، وتعلوه مسحة من الجهامة تروعك فيخيل اليك ان انتقال الدنيا بأسرها قد تجمعت لتنزل على راس صاحبنا لتصهره .. ويروعك منه كذلك أنك تراه كأنه لا يشعر بالناس لتشاغله عنهم بشيء في يده ، وهو في الحقيقة يخفي احساسه الجياش بكل ما يدور حوله من صغيرة او كبيرة ..

وانسان هذا حاله - وهو مثل لكثيرين - لم يجد الظروف التي تهيأت للذين وقف عندهم صاحبنا ، بالرغم من جهاده الضخم الذي عرفناه قبل عشر سنين ، ولم يتمتع ببساطة حسس حتى يصبر على السخافات ... ، أو وقاحة نفس حتى يزج بنفسه في مزدهم طلاب الحاجات ، أو في موكب المتلفين المنافقين الذين يظلمون بقيادة الميادين الادبية والفكرية .

مثل هذا الانسان لا نلومه ، لاننا حينئذ نلوم غير ملوم ، وانما الذي نلومه هو أخلاقنا نحن ، أخلاقنا التي اشترعت القبليّة في الميادين الفكرية والادبية حتى غدت منهجا ينتمي اليه من يريد علوا في الارض، وبعدا في الصيت وشهرة تشيع في الارجاء .

ومن ثم فاننا نشكر للصديق الذي خالفنا فيما ذهبنا اليه ، لانه أتاح لنا أن نضع النقط على الحروف وان نقول له كان من المتوقع ان تبحث الدولة بالعقلية الناضجة والاحساس الثوريين عن المعداوي وأمثاله ممن سنذكرهم في هذا المقال لتلقي اليهم بأعبائهم الفكرية والادبية والاعلامية في شتى المجالات ، لان اكتشاف المخلصين في الفكر والادب أصعب فيما نعتقد - من خوض معركة حربية لها من الخطر والهول والجلال ما لها .. أصعب منها مرة ومرات وعشرات المرات وآلافها ، لان هؤلاء المفكرين الاصلاء لا يعرضون انفسهم عرض السلع في الاسواق على مسؤول مثلا ، وانما يتروكون للمسؤول فرصة التعرف على اعمالهم في ماضيهم وحاضرهم ، وهذه مهمة المسؤول عن القيادة الفكرية والادبية الفصوى التي نزعهم أنها تمثل الثورة الثانية التي دونها تتعثر اعمالنا الفكرية والادبية والاعلامية ، وتتخط في ضروب ومناهات دون هدف واضح ، لان القوامين على هذه الاعمال من دعاة البطالة الذين يعيشون في سماوات من التفضيل والافك والبهتان التي ملأت عليهم حياتهم ففدوا سكرى مخمورين لا يفيقون الى الحسق الإبلج - وليس في وسعهم ان يفيقوا اليه ، لان معناه عدم وجودهم - وانما يتخذون الباطل الصراح منارا يقيسون من ضوئه الكاذب الخادع ليرضوا به ذوي النفوس العليلة التي لا تكلف نفسها اعمال ذهن ولا شحذ

«ما أشنع الظلم وأبشعه حين يكون على مفكر أو ناقد أو أديب» تحدثنا في مقالتنا السابقة عن القسم الاول من آثار القبليّة النقدية التي كانت سببا في اهدار مبدئين انسانيين يتمثلان في تكافؤ الفرص والبقاء للاصلاح ، وقد أفردنا المقالة السابقة للحديث عن انور المعداوي احد النقاد الاصلاء من هذا القسم - الذين لم يأخذوا حقهم في مزاوله الحياة الادبية والفكرية ، في الوقت الذي ينعم بها الادباء المفسرون الذين ألفوا البطالة حتى عبدها ، واستمروا الكسل ، ودبت في أوصالهم حميا الخور والامتهان العلمي .

ولعل قارئنا يسأل سؤالاً هو الازم سؤال في هذا المقام ، ولم أفردت الاستاذ المعداوي بمقالة خاصة ؟ ونجيب بدورنا على هذا التساؤل قائلين ان الذي صنعه القبليّة مع المعداوي يعتبر مثالا صارخا لا يرقى اليه ما صنع مع غيره ، وذلك بالإضافة الى انه قام بحركة تطهير في الحقل الادبي في العهد الماضي ، فكان من المنتظر ان تكون مكافأته على هذا العمل الجليل الذي لا يقوى عليه الا افراد قلائل في كل عصر وجيل بما يتفق وجهادهم في الميدان الفكري والادبي .

لقد كان من المتوقع مثلا ان يمنح شهادة تقدير ادبي تمنحها الدولة للمخلصين من ابنائها ، وان توليه مع امثاله زمام القيادة الفكرية والادبية بدلا من حملة العكاكيز والكيزان الذين يسيرون في السدروب والمنعطفات المتنوية .

وقد يخالفنا قارئ اخر مدعيا علينا أننا قد بالفنا في تقدير المعداوي حينما ذهبنا الى أنه صاحب أصالة فذة وعبقرية خلّاقة في النقد الادبي ، لان المعداوي لم ينتج في هذا الميدان منذ عشر سنين . ولانه اذا صح ان نقول ذلك عن المعداوي فما الذي نقوله عن « الدوس هكسلي » وعن السقاد وهازلت وغيرهم من المفكرين والنقاد .

ونحن نرحب بهذه المخالفة لانها تقودنا الى وضع النقط فوق الحروف لكي نزيل ما التبس على صاحبنا من شبهة ، ومن هنا فاننا لا نرى ان للعبقرية مقياسا محددًا مرسوما « ومسجلا بالشهر العقاري » بحيث لا تقاس به الا عقلية هؤلاء الذين ذكرهم صاحبنا ، ولا تخلع صفة العبقرية الا بناء على نتائج هذا المقياس المفصل على الكبار ، لان العبقرية من وجهة نظرنا هي القدرة على الخلق والاصالة في فهم الاشياء وعلاقتها بعضها ببعض الاخر ، وبالتالي فالعبقري خالق . كما انه ليس هناك مانع عقلي من ان يكون هؤلاء عباقرة والمعداوي عبقرى ايضا .. لان الاصالة والقدرة على الخلق موجودة عنده ، وقد ظهرت اثارها فيما كتبه من فصول في النقد الادبي تضمنتها كتابه وغيره من الدراسات التي نشرت بالمجلات الادبية ، وليس هناك من فارق بين عبقرية هؤلاء والمعداوي .. ان الموقف هنا مختلف عن الموقف هناك ، حيث وجد هؤلاء ظروفًا مهيئة للانتاج الادبي والفكري ، أو لم توجد الظروف وكانوا ذوي طاقات عصيبة ونفسية تقدر على تحمل ما يلاقونه في سبيل توصيل فكرهم وانتاجهم الى الناس حتى الى العانسدين الكسابين الذين يغمطونهم كل حق .. أما المعداوي فان الظروف لم تهيه له الفرصة المناسبة لكي يستطيع أن يواصل انتاجه الفكري والادبي بتلك الفزارة التي عهدناها فيه قبل ذلك ، لان العوامل الجانبية كما قلنا تدخلت وأهدر مبدأ تكافؤ الفرص بدعوى القبليّة النقدية وملحقاتها ..

قريحة ، يتخذون الباطل منارا ، والفاستدين المفسدين قدوة واماماه ، وتلك عقريتهم وبراعتهم التي لا يبارون فيها ، والتي تشير بوجودهم في الساعة واليوم لا في الغد والزمن ، لان الخلود ليس من العتبه يمكن حتى يصافح هؤلاء الحمقى آخذاً بالمنهج القرآني الذي يتضمن ان الزيد يذهب جفاء ، وأن الذي ينفع الناس يمكث في الارض .

وهذا المنهج القرآني يشجع صدورنا ، ويشيع الطمأنينة في نفوسنا ازاء ادياننا ونقادنا ومفكرينا الاصلاء الذين لم يعرفوا بأعمالهم قدر ما عرفوا بالاحن والعداوات والبواعث الشخصية التي افاضها عليهم منتجوا الزيد الذين يتخذونها وسيلتهم الى التسلق والترقي .

ولكننا نقول لهؤلاء : اصنعوا ما شئتم .. اصعدوا الى السماء . أو انزلوا الى الارض في مهز سحيقة .. شرقوا أو غربوا .. دوروا حول انفسكم حتى تسابنوا سفن الفضاء .. افعلوا ذلك كله أو بعضه ، فانه لن ينفعكم شيئا ، ولن تملكوا به ضرا ولا نفعا ، لاننا نعرفكم بسمانكم وانشخاصكم وبواعثكم .. نعرفكم معرفة صحيحة مؤسسة على المنطق الواعي ببواطن الامور ، ولن تأخذوا ممن عرفكم من المثقفين - وما أكثرهم - تقديرا تباهون به أطفال الحارات والازقة ، في الوقت الذي يتوجه فيه المثقفون بكل تقديرهم واجلالهم وصلواتهم صوب الاصلاء من المفكرين والادباء والنقاد ، يتوجهون صوب الاستاذ :

علي أدهم

« يعرف الناس بعض فضله ، وان ما يعرفونه مع ذلك لكثير ، موسوعة من العلم والادب ، يقوم عليها حارس امين ، حراسته جسد ورسالة وايمان ، يشتغل بالتاريخ اشتغال الفيلسوف ، ويشتمس بالفلسفة اشتغال المؤرخ ، ويمزج التاريخ والفلسفة معا بفتنة الاديبي ، ومن عيوب الشرق ان يعرف من مثله القليل ، ولا يعرف كل ما ينبغي ان يعرف منه ، وعنه ، وهو كثير » .

بهذه الكلمات القصار استطاع العقاد (1) ان يرسم شخصية استاذنا علي أدهم ، وأن يعبر عن شخصيته واعماله الادبية - من وجهة نظره - في تعبير موح ولكنه أدل على الاستاذ علي أدهم أوضح دلالة وأتمها ، ولا يقف تقدير العقاد عند هذا الحد ، بل انه لينزل على رأي علي أدهم في بعض الاحيان ، وينشر ذلك على الناس في صحيفة الاخبار ، وذلك كما حدث في نسب الناقد الالمني « ليسنج » وادعاء يهوديته بالامس القريب .

ونحن ازاء تقدير العقاد للاستاذ علي أدهم لا يسعنا الا أن نقف عند بواعث تقدير العقاد له ، ليتسنى لنا بعد ذلك أن نعرف مدى آثار القبلية النقدية في غمط فضله عن طريق التجاهل والتناسي حيننا وعن طريق التفابي في بعض الاحيان .

فلسفة التاريخ :

يقف الاستاذ أدهم في فلسفة التاريخ وقفة مع أبي العلاء الميري حيث يصطحبه في رحلة داخل احساس الميري وعواطفه وفكره ، فيحنو عليه ، ويربت على كتفه قائلا له : لست بدعا يا أبا العلاء في آرائك وانما لك أمثال ونظراء في الفكر الاوروبي الحديث ، وانك لتقدم على عصرك وجيالك تقديما يهيب لك مقعدا وثيرا مع الخالدين ، وان الذين حاولوا أن يغمطوا حقاك يا أبا العلاء قد جرفهم تيار النسيان فاودى بهم

(1) اتنا نقف عند رأي العقاد دائما لسببين : أحدهما أن العقاد في تقديره للادباء والمفكرين لا يمالئ أحدهم ، لان منهجه في تقدير الاشخاص الا يقول كلمة ثناء في انسان لا يستحقها ، لان خلق الضرس عنده أولى منها .

ثانيهما : للرد على الذين يدعون باطلا ان العقاد يقف عقبة كأداء في طريق الادياء الناشئين ، ويطلون يعولون ويصرخون ، ويمألون الدنيا ضجيجا وعجيجا ، وهرجا ومرجا ، في كل زمان ومكان ، فهؤلاء نقول لهم : ان العقاد لا يقف في طريق الاصلاء ذوي العبقرية والخلاقة ، ولا يحارب الا الاديعاء مرضى الشهرة ، الذين يتمتعون بالعتنه العقلي ، مشوهي النفس والفكر .

الى قاع سحيق حيث أغلق عليهم صفحة من العقاب على ما اقترفوا في حق أبي العلاء حتى جعلوه متشائما متطيرا من الحياة والاحياء جميعا . وفي هذه الوقفة يرجع بفكره الى الميري في عصره ليعرف هل استمد الميري تطيره من أحوال عصره المضطربة وتشبع به من جوه القاتم؟ أم استمد تطيره من مصدر اخر؟؟

وفي الاجابة على ذلك يذهب الاستاذ أدهم الى أن ادعاء أن العصر كان السبب في تطير صاحبنا غير مقنع ولا شاف ، لان عصر الميري عصر شك وانحلال وانحدار في مهبط التدهور ، ولكن تشاؤم الميري كان أبعد أعراقا من أن نعزوه الى حالة عصره ، وعبقورية الميري بطبيعتها عبقرية حزينة ، وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحد ياسسه وأكد حنقه على الايام وتصاريها ، ولكنه لم يخلق هذه النزعة .

ويضي على أدهم في تفسير بواعث التشاؤم عند الميري قائلا : « وقد لاحظ أناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في اوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والسائلة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون أن يوجد ، وقد يضعفها ويصد تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، وأهم العوامل المكونة لتطير الميري كاتمة في نفسه ضاربة في صميم طباعه ، ومرددا الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبيه !!

على أنه يرى أن أبا العلاء بهذا المزاج وذاك الطبع من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الناقمة على الوجود والمؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلا عن الصور والاعراض ولا يشكو عصره ليمدح اخر ، وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ، ليس لكسره جبر ، ولا لدائهم دواء يستطب به ، فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شونهاور أن الحياة في نفسها جريمة تكفر عنها باحتمال الامها ، وفي الوقت نفسه يرى الميري أنها « جناية » - التتمة على الصفحة ٧٤ -

صدر حديثا :

الفجر آت يا عراق

للشاعر :
هلال ناجي

الديوان الذي يرهص بثورة العراق الاخيرة على الطاغية قاسم ويقني آمال الشعب العربي في العراق ونضاله في طريق الوحدة والاشتراكية والحرية .

قصائد من وحي ١٤ تموز وثورة الموصل وثورة ١٤ رمضان .

منشورات :

دار الآداب - بيروت
مكتبة النهضة - بغداد

الثن ليرتان لبنانينتان

والقيلية النقدية أيضا

- تنمة المنشور على الصفحة ١٤ -

جناها الإباء القساة على أولادهم المساكين ، وأنها مصيبة تعالج بالبر والاحسان :

فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزك عنها أن تبر وتحسنا على أنه يرى أن أبا العلاء بنفرد من بين شعراء العرب قاطبة بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي أنه أقربهم في مستوى الفكر والثقافة الى فكر الغرب في العصور الحديثة ، وكان فكره الجوال قد نقله من عصره الى أفق الفكر الاوروبي الحديث .

وفي مقام التدليل على هذه القضية يقول : « ومن يدمن قراءة المعري يلحظ أوجه الشبه بينه وبين أمثال « شوبنهاور وليوباردى وفيننجر وأنتول فرانس وكارلايل » وغيرهم من أعلام الفكر الغربي ، بل ان هناك مشابهة قوية بينه وبين شكسبير نفسه ، وفي اعتقادي ان هذه المشابهة البارزة لم تجيء عفوا ، وقد يمكن الاستعانة على فهمها بشيء يسير من التحليل التاريخي ، ولا ريب أن في كل عبقري جانين ، أحدهما عالمي والاخر زمني محلي ، والجانب الاول متصل بمزاجه الخاص ونفسه الدخيلة الطوية في ظلمات الخفاء . والجانب الثاني متصل بأحوال العصر وخاضع للتفسير والبحث ، وأرى أن هناك شبيها من وجوه كثيرة بين عصر المعري والقرن التاسع عشر ، وكذلك مشابهة عامة في المزاج الاصيل والطوية الكامنة بين المعري والكثيرين من كبار مفكري الغرب ، والتنام هذين السببين قد زاد الشبه العام توكيدا ، وجعله من الواضح بحيث يسهل لمسه من غير كبير كلفة » .

وفيما يختص بالعصر ذهب علي أدم الى انه من أرقى عصور النضج الفكري للحضارة الإسلامية ، برغم اضطرابه الشديد من الناحية السياسية ، والمعروف ان العصور التي تتراخى فيها الروابط الاجتماعية وتفكك الوحدة هي عصور الضعف في حين أن العصور التي تقوى فيها تلك الصلات ويكون المجتمع أشبه بوحدة عضوية هي عصور القوة ، وقد تكون عصور القوة والوحدة راکدة من الوجهة الفكرية والعلمية مجذبة من الروح الفنية ، وقد تكون عصور الانحلال والضعف زاھية بالحياة الفكرية مشرقة بالاثار الفنية ، ومن هنا فان عصر المعري في جملته من عصور الضعف التي غلب فيها الشك اليقين ، وتحللت فيها العصبية وفترت المبادئ ، وضعفت فكرة « السلطة العامة المحترمة » وامتهنت في شخص الخليفة العباسي أكبر ممثليها وتهيات الافكار لشيء من حرية الفكر ، وإنما مهد لها السبيل ضعف التعصب وانطفاء جذوة اليقين وانتشار الشك وتناول كل شيء بالبحث والنقد ، وكذلك في القرن التاسع عشر كان العصر مكفهر الاق قد تخلخلت فيه اركان المجتمع بسبب الهزة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وهدمها للنظم القديمة ومحاربتها الآراء العتيقة ومحاولتها القضاء على التقاليد ، وكان الانسان واقفا بين بناء اجتماعي منهزم ، وبناء لم تتم بعد اقامته ، وكان الموقف موقف شك وحيرة وتساؤل ولهفة يكثر في أمثاله الفلاسفة المتشككون والمتطيرون ، ويظهر من ناحية اخرى دعاء الاصلاح وبناء النظام الجديد يشرون بالعصر المقبل ويجددون اليقين الواهي ، وأمثال هذه الاوقات صالحة للفكر مثيرة له ، لانه يجد في اضطرابها وفوضاها مجالا للنماء والاسراع ، ويأمن خطر العدوان على حريته واقتحام حرمة ، لان فرصة التفكك والانحلال تهيء له اسباب الحرية وتمكنه من تصفح الخواطر المختلفة والقيام بسياحتها في عالم الافكار المتناقضة والمذاهب المختلفة ، وليس في وسع مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان ان يعبر عن نفسه التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر او العصور الوسطى ، وما كان يسمح عصر مثل عصر عبد الملك بن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي أو أبي العلاء ، وهذا من أشد ما ينعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول باحكام الروابط الاجتماعية أن تعصب الناس جميعا في قوالب متشابهة وتقضي على التنوعات الفردية واختلف ألوان الامزجة .

على أن ابا العلاء - في رأي الاستاذ أدم - نهم الفكر شغوف بتعرف كل شيء مطبوعا على تلك العالمية الخاصة بالبعيرين ، وهذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويفري بالتنمق في تأمل حوادثه وعرض صوره ، ومن ثم كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم ، وفي أشعار هوميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشيلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفر له من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد اخبارها وينص عبرها ويتأمل ما انتابها من مختلف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد أبو العلاء في التاريخ مجالا رحيبا لتطيره ومنفذا لسخريته ، وكان يشعر بفزارة معرفته التاريخية ويقول :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف وبالإضافة الى ذلك فان أبا العلاء كان رجلا حائرا شاكيا منفردا بنفسه ماهرا في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية ، نزاعا بظفرته الى التطير ، من الواضح اللازم ان تسمع في فلسفته التاريخية صدق يأسه وترى أثر تملله وتسخطه ، وقد كان أبو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجه العاجي للانغماس في تيار الجماعة وإنما الدنيا ملعب وهو متفرج لا لاعب كما في قوله :

والارض رقعة ألعاب مقسمة منها سهول وأجبال وحزان وهو من ثم لا يرى في التاريخ الا الفرد المحدود القدرة يسأل الدهر فيقلب ، والمجتمع في نظره كتلة من الافراد لا وحدة عضوية ، وهؤلاء الافراد لم يجتمعوا في ظل فكرة روحية أو بباط سام ، وإنما أرغهم على الاجتماع الطماعية والحيوانية :

ما أشبه الناس بالانعام ضمهم الى البسيطة مصطاف ومرتب . . وعلى هذا المستوى من الفهم في تحليل العصر ومزاج أبي العلاء يدلف مفكرنا الى اختلاف المؤرخين في تفسير التاريخ واستنكاه حقيقته المتوارية وراء مظاهره ، ويرى انه اختلاف واسع ، ولهم فيه مذاهب مختلفة ، وأشد تلك المذاهب تناقضا مذهبان :

أحدهما يلوذ به المتطرون وهو مذهب الحركة الدائرة وبمثله القديما بالافى التي تأكل ذنبا ، وانصار هذا المذهب يتكرون الوحدة الاجتماعية والتقدم التدريجي الشامل ولا يعتقدون أن هناك غاية منصوبة تتجه اليها الانسانية ، ويرون المجتمع والانسانية عامة شراذم من الافراد تستحقها المطالب المادية وتسوقها الحاجة الى الاجتماع استجابة لتلك الرغائب والحاجات ، وحينما تكون الظروف موافقة تتكون نواة أمة ، وكل هذه الامم خاضعة لقانون الحركة الدائرة ، فهي تمر في ادوار متتابعة من الحكومة الملكية الى الحكومة الارستقراطية ومنها الى الديموقراطية وهذه تسلمها الى الفوضى ، ومن الفوضى تنحدر الى الحكم المطلق وهكذا دواليك .

والانسان في رأي أنصار هذا المذهب موكول للصدف العمياء مهجور في هذا الكون المرعب ، تلعبه الفرائز وتعبت به الاهواء وتفريه الاطماع والشهوات فلا يجد من أمرها فكاكا ولا يملك لها دفعا . وفي هذا يقول ابو العلاء :

تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند رب صانكم خطر كما أنهم يرون أنه ليس هناك عناية الهية مشرفة على هذا الكون تريق الضوء في حياة الانسان وتأخذ بيده في هذه الاحوال والارجاس والعوائر ، فما قيمة الاعمال والجهود وما أثرها في عالم كهذا العالم ؟ . ومن اصحاب هذا الرأي فريق ضعفت في نفوسهم الحاسة الاخلاقية وتمت الغلبة لعقولهم على عواطفهم فشأنهم في مداورة الايام واقتناص الفرص وعبادة القوى المادية والتجارة بالمبادئ والتقلب في أقدار الحياة تقلب السمكة في البحر . وفريق اخر من ذوي النفوس الخيرة والقلوب الكبيرة قد راعتهم هذه الفكرة وملات نفوسهم مرارة وأما فهم يشيرون بالياس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات ليكون مصائر الامم ، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بعور الفناء ، والانتصار في نظر اصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلام ، وهم يسخرن من أنفسهم ومن الطبيعة والكون ومن الله نفسه وانبيائه ورسله ، وكان الطبيعة التي

ضنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء والزراية .

والمنهج الثاني يؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم ويسرى ان الانسانية سائرة الى الكمال ، وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الفريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الفرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودهما المشتركة ، وهي ترى ان خير كليل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل، وذلك النزوع الى الكمال الذي يهون التضحية ويوحى الايمان ويعمر القلوب بالايمان .

ويفخر كلا المنهيين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ السفكر الغربي ، فمن انصار المنهج الاول ميكافلي وشوينهاور الذي يقول « ما دامت الحياة ابدية فان فكرة التقدم لا محالة باطلة » وكارليل ، ومن القائلين بالتقدم ببيكون وديكارت وميشليه واوجست كنت.

وأبو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المنهج الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديدا تحت الشمس فيقول عن الناس :

يسمعون في المنهج المسلول قد سبقوا الى الذي هو عند الفر مخترع ابداع هذه المعاني ثيبسات حجا في كل عصر لها جان ومفترع وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذر عاقبة كعاقبة المغلوب فيقول له: لا تفرح بدولة اوتيتها ان المدال عليه مثل الدائل وينذر من احتوت يده على شيء بأنه سيفقده لان :

من يعط شيئا يستليه ومن يتم جئح الظلام فانه سيورق وقد أجرى اناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل في تحدته الى ملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب اراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص البشر « انهم ولدوا وتالوا وماتوا » .

ويرى الاستاذ ادهم ان هذه الكلمة نفسها يصح ان تكون موجز رأي ابي العلاء الذي يقول :

خلقتنا لشيء غير باد وانما نعيش قليلا ثم يدركنا الهلك بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه ميزاتها وصفاتها :

فتحن في غير شيء والبقاء جرى مجرى الردى ونظير الماتم العرس ويختم هذا الفصل في فلسفة التاريخ لدى ابي العلاء المعري بقوله: « وهذه هي اعمق قرارات اليأس ، ولكنها ايضا الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها ان يكون الامام الثبت والحجة والثقة في وصف علل الحياة وادواء النفوس ، ولئن كان يستمك من ابي العلاء جهامة الحزن الذي لا تزديه اعاجيب الحياة ولا تطربه انغامها فتد يسليك منه تسم الساخر التهاتف الذي لا يعفي شيئا من سخريته ولا يففل لحظة عن تهانفه » .

وبهذا العمق في الفهم والاصالة في التفكير والعبقرية الخالقة وقف عند تولستوي وشوينهاور في فلسفتهم للتاريخ ، واستطاع ان يجعلنا نحس التاريخ ونلمسه ونصافحه كأنه حي يتحرك من خلال فلسفة هؤلاء الاعلام في عالم الفكر والفلسفة والادب على حد سواء ..

ومن ثم نرى ان ما كتبه عنه العقاد بصدد الفلسفة والتاريخ صادق فيه كل الصدق ، ولا سيما حينما يقول انه يمزج التاريخ والفلسفة معا بفطنة الاديب . ومن هنا كذلك ساغ للاستاذ ادهم ان يطلق على كتابه « بين الفلسفة والادب » لان فصوله - كما يقول - عليها مسحة من الفلسفة ، وبها نفحة من الادب ..

وفي اعتقادنا ان رأي العقاد لم يات على كل جوانب الاستاذ ادهم، لانه عني فيما عني به بالفلسفة والادب وما كتب عن التفاهة حول شاعرية المعري وفلسفته وغيره من الشعراء ، كما عني بدراسة العبقرية وانواعها ، مما يجعلنا نقول بحق عن الرجل انه مفكر وناقد معا ، استطاع ان يدرس القضايا الفكرية بحصافة الناقد وذوقه المرهف واصالته .

ومن يتعمق في دراسة ادهم للفلسفة والادب يرى ان الرجل يذهب الى انه من غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار. والتي قد تظهر

لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين اشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض .

وفي مجال التطبيق على هذه النظرية يبين ان التمام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في ابي العلاء ، والتمام النزعة العلمية بالموهبة الفنية في مثل جيتي وابسن من هذا القبيل . وذلك لان الفلسفة غير الشعر ، والشعر نقيض الفلسفة ، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة ، وقل مثل ذلك في الملكة الفنية والاستعداد العلمي ، فان الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعتمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء ، ومجراهما في طبيعة الانسان مختلف .

ويوضح هذه الحقيقة اكثر بالنسبة لابي العلاء وغيره من الشعراء فيمحو كل شبهة تعلق بذهن القارئ حينما يذهب الى ان ابا العلاء ليس فيلسوفا من باب التوسع والمجاز ، او لانه أخذ بطرف من الفلسفة، وانما هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهم منها امثال الاساتذة وندلباند ، وهفدنچ ، وفواييه ، وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة بمثل البطاقة التي دخل بها امثال نيتشه وكارلايل وكولدرج وغيرهم من عظماء الكتاب والمؤرخين والشعراء الذين نقلت عليهم افكار خاصة ظاهرة العالم في مناحي تفكيرهم وان لم يقيموا على اساسها مناهج فلسفيا منتظما محبوب الاطراف متجاوب الاقسام مثل مناهج شوينهاور وهيجل وغيرهما من اصحاب الابنية الفلسفية الضخمة ..

ويرى ادهم ان لابي العلاء افكارا خاصة مبتكرة عن الادب والاخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود، مطردة الاحكام لا بني يرددها ترديد العابد تسبيحانه ، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنشورة المنظومة فكرة عامة يفرغ اليها ويحف برائتها، وهذه الفكرة العامة خفاقة في كل ربوعه الفكرية ، ويسمياها ادهم مناهج فلسفيا وموقفا خاصا تجاه الحياة .

على ان الاستاذ ادهم ينظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تروج بها صفحات دواوين ابي العلاء منفصلة عن الصور الفنية والقوالب الشعرية ، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى منطقة الفيلسوف ، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ، ويجاهد معضلات الحياة المستصعبة بجاش ريبط من غير ونية ولا فتور، ويحاول ان يفض اغلاقها ، ويزع النقاب عن سرها ، وتكاد تشعر بلهفة نفسه ، وتصلصل جوفه من شدة الظم الى جرعة من المورد الذي يبرد كل المفكرين ظمى متقلصي الشفاه ، لا ينقع لهم غليلا ولا يشفي لهم نفسا ، ولم تبرد من لوعته المشبوبة في هذا الجهاد الشاق اضعاليل الاماني وكواذب الاحلام ، ولم تصرفه عن مطلبه العسير صوارف الحياة ومشاكل العيش ، وهو يحتال في رياضته هذه المشكلات ببراعة فنية مدهشة جدية باسائفة الفن واعلام الادب ، ويكاد يهلك في شعره التفكير الفيلسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتألق خلال اشعاره من بارقات الخيال الملون القوي وما يدفئها من حرارة الشاعر الحادة المستيقظة، وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تشب الا من مقول كبار الشعراء .

ومن ثم فان ابا العلاء في نظر ادهم شاعر كبير ، لان الشاعر الكبير في مفهوم مفكرنا هو الذي يفرنا بالتساؤل عند ما نقف حياله عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة ان يرصع الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويرر موقفه، فالشاعر اذن يقتبس من انوار الفيلسوف ، والفيلسوف يختلس من اشعة الشاعر، وهما لا ينسيان هذا النسب العالي والاخاء الروحي في اشد اوقات الخلاف والعداء .

وحيثما يتحدث ادهم عن رسالة الشاعر يذهب انه ليستوظيفته ان يتناول الحق مباشرة وانما وظيفته ان يتناول من الجانب الحسي وينضو الجمال ويمزجه بحياة الانسان وعواطفه وأهوائه ومراغيبه ، وليست الكانة الاولى في الشعر لما قاله الشاعر في ذاته وانما لكييفسه

قوله وأسلوب أدائه . وليس الشاعر هو الرصاص الوزان الذي يرصف الالفاظ رصفاً ، وينحت التراكيب ويوقع التفاعيل ويتخير القوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا أكثر ولا أقل مهما تسمى أو أسف ، وانما الشاعر الحق هو الذي يعبر عن أعماق الحقائق ويلمس خفايا القلوب ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاورها ليرشدنا الى افاق فكرية فسيحة ويركز اعلامه فوق مطالعها وثنياتها . والشاعر الحق كذلك هو من كان بطبيعته أكثر استيعاباً لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتضي تصويرها الفن ، وهو يجمع الى ذلك موهبته الموسيقية والتنظيم والسيطرة على اللفة وتسخيرها في أداء أغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخوارج، والشاعر الكبير الذي يعبر عن روح العصر ، ويصف شتى جوانب النفس الانسانية، وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوذة، يلزم له مجهود ضخم ، وعلى الطبيعة ان تجزل له المواهب السنية، ولا مفر من أن يزداد الى تلك الحساسية اللطيفة والطبيعة الزودة بالانعام عقل كبير يضئ الظلمات ويكشف المخبات تشد من قوائمه في أكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم ، بخيل بهم الزمن ، وأبو العلاء من هؤلاء القلائل .

ولعل النزعة الفلسفية جارت في أبي العلاء على السليقة الشعرية، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقع واستغلى على العاطفة وقد دفع ابو العلاء ثمنا غالبا لذلك ، ولولا انتهاجه هذه الخطة واسرافه على نفسه فيها اسرافا أشاء الى شاعريته لكان شعره أجرى الى مسالك النفس وأشد حوكا في الطباع ، ولقد أجاب أبو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينه وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يحلل أفكاره ، ويشرح عواطفه، ولا يتعرض لحلو التجارب ومرها ، ولا يعانق مد الحياة وجزرها ، والوقوف على الشاطئ وعدم المغامرة في اللجج ومجانبة القلب في أدوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسلك قد يلائم طبيعة الفلاسفة المتسكين والعباد الزاهدين ، ولكنه مفسدة أي مفسدة للشاعر ابن الطبيعة المدلل وصفيها المحب ، وقد غص هذا المسلك من روعة خيال

العري وشوه من جمال شعره ، وثارت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلدًا على القراءة لا يستطيع أن يمضي في قراءة صفحات معدودة من اللزومات دون أن يحمل على نفسه ويعنفها .

وفي تصورنا ان الاستاذ أدهم في هذا المنهج الفكري النقدي لفلسفة الادب انما يبتدع منهجا جديدا على فكرنا ونقدنا العربي، وان كان قد سبق بعض أبحاث لبعض المفكرين العرب في هذا الاتجاه، فانها لا تعدو أن تكون محاولات فضلا عن أن تكون منهجا .

معيار العبقرية :

ودلينا على عبقرية الاستاذ أدهم الذي لا ينقصه أي باحث ولو كان من أولئك الذين يزعمون أن الضمان الوحيد لسريان أي دعوى تجديدية يقوم على غمط الرواد حقهم ، والضرب صفحا عن أعمالهم .

دلينا على عبقرية ما كتبه عن معيار البطولة في كتابه « صقر قريش » إذ أنه ذهب فيه الى ان المتأمل في تاريخ الإنسانية في هذه الارض - زورق الحياة الصغير الذي ينساب بنا في علم من اللانهائيات جيش العباب يهول صمته ولا يسبر عمقه - يجد أن الحركة التاريخية السائرة من انبلاج فجر الحضارة تتجه الى غاية مجهولة ، وقد تكون تلك الغاية من فوق متناول الانهام ومن وراء خطرات الاوهام، ولكننا نحس وجودها ونستشف أثرها من وراء فوضى الحوادث واختلاط الظواهر ، وحول اثبات تلك الغاية ، وتلمسها واستيضاحها أو انكارها وطمس معالمها تدور أرجاء معارك فكرية بين المدارس المختلفة من المفكرين . على أنه يذهب في هذه الغاية الى انها ظاهرة السمة في الحركة التاريخية يتم عنها ذلك التدرج والانتقال الدائم في النظم والاضواع الاجتماعية ، وقد تصدى كثيرون من اعلام الفلاسفة لاثبات هذا الترقى الملموح في التاريخ وفي طبيعتهم « فيكو » و « هردر » و « هيجل » ، والحق أن ترقى الإنسانية من نظام الفردية الى نظام الاسرة الفائلية فالملكية ثم ظهور السلطة الدينية ومجيء عهد القوات الكبرى في العصور الحديثة يدل على ان هناك تدرجا دائما وراء تلك الاستحالات في الازواع الاجتماعية وان الحضارة تتجه الى غاية تشترك الامم المختلفة في سوق جموع الإنسانية إليها . ويمضي أدهم مبينا أن الافكار هي أداة السيطرة في هذه الدنيا ، وهي اللب والصميم لكل تلك التفيرات الخارجية ، وهذا ما يؤكد الاستقراء التاريخي ، ومن ثم فان كل دور من هذه الادوار التي مرت بها الإنسانية نتيجة لظهور فكرة العصر ، او روح العصر . وهذه « الفكرة » تظهر في مستهل امرها غامضة ملتبسة يحفها ضباب من الغموض وتفر من المنطق والتحليل ، ثم تنجلي عنها سحب الغموض وتزول شيئا فشيئا حتى تظهر الفكرة جلية واضحة، ثم يدركها العفاء والبلبى فتندبل وتندوي وتقوم على اثارها فكرة جديدة. فتاريخ الإنسانية اذن سلسلة من الافكار التي توالى على الدنيا وارتمت في صفحة الحياة البشرية ، وأكثر معارك التاريخ وأيامه كانت لتقليب فكرة من هذه الافكار على الاخرى .

ثم يدلف الاستاذ أدهم الى الحديث عن الطريق الذي تسلكه الفكرة ، ويرى في ذلك أنها تتخذ لظهورها طريقين : أحدهما الجماعات والآخر الافراد ابطال التاريخ ، وهي تظهر في الجماعات بشكل دافع يستحثهم على الهجرة والانتقال مثل رحلات قبائل البدو السامية من جوف شبه جزيرة العرب الى حوض دجلة والفرات ، وظهور حضارة بابل وأشور نتيجة لذلك ، والذي يسوق الجماعات في تلك الاحوال هو الفريزة التاريخية التي تدفعهم من حيث لا يشعرون وهم يخالون انفسهم متجهين الى غرضهم الخاص المعين ، وغرضهم الخاص هذا في الاعم الغلب قليل الشأن ضئيل الى جانب الغرض الكبير الذي ترمي اليه الفريزة التاريخية ، وهذا الغرض لا ينكشف خفيه الا بعد زمن . أما الطريق الآخر لظهور الفكرة فيتمثل في الايحاء الى الافراد الذين نسميهم ابطال التاريخ واتخاذهم روادا للفكرة وطلائع لها ، وهم أشبه بالآلات في يد الفكرة ، يعملون على تحقيقها من خلال سعيهم الى مجدهم الشخصي ، وهم يؤدون للانسانية خدمات من وراء افاق تفكيرهم

في المكتسبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عابدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير أن يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي أدت الى انتصارها : كيف أصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الآداب - بيروت

الثلثون أربع ليرات لبنانية او ما يعادلها

وحدنا ، أما « جيتي » فإنه كان يسترشد بفلسفات وموازين أدبية وقواعد فنية يستمد منها ، ويستقي من منهلها .

ويضفي الأستاذ أدهم في حديثه عن العبقرية الإسبانية مدعيا أنه في الوقت الذي تنزع فيه أوروبا في تفكيرها الى الموضوعية ، وترغم الانسان على ان ينيم أهواءه ، وينسرح من ذاتيته ، ليستطيع العقل ان يفهم الاشياء فهما سليما ، ويكون لها صورة صحيحة ، فان اسبانيا في الوقت نفسه تنظر الى الانسان بقضه وقضيضه على انه محور فلسفتها وأساس فنها وأدبها .

ومن ثم فان العبقرية الإسبانية - كما يراها أدهم - ضيقة المدى، ولكنها عميقة مثرية ، وفكرة الموت لها في الادب الإسباني شأن كبير، لان الادب عندهم يدور حول الانسان، وهذا الانسان الفرد هو تاج الخليفة وخالصة الوجود ، ولكن الموت يثل عرشه ويهدم ايوانه .

على ان اسبانيا تخون فرديتها وتسي رسالتها اذا كانت تقبل فكرة بقاء الانسان في نوعه او في أعماله ، لان تصور « الشعب » والاجيال القادمة في رأي العقليّة الإسبانية تجريدات لا حقيقة لها ، وانما الانسان « الفرد » هو الحقيقة ، وهو الذي ينتزعه الموت ، ويطويه الفناء ، فشدّة شعور العبقرية الإسبانية لا تستسلم لفكرة الموت ففي اعماقها كنوز من النشاط والهمة والعزيمة الماضية كافية للتغلب على الالم ومكافحة الياس ، ومن هذا النبع العميق للحياة تنبجس في نفسها الصوفية .

كما أن القوة الخالقة في الادب الإسباني أقوى وأوضح من القوة الناقدة ، والادب الإسباني في تطوره يتبع العبقرية القومية ويخضع لها، ويرفض كل املاء عقلي أو قاعدة مفروضة ، ويستهدي بغيرزة الشعب التي تحدوه على تأمل الواقع وتفسيره تفسيراً مباشراً، وهذا هو سبب طرافة الادب الإسباني واستقلاله .

واخالتنا بعد هذا التجوال السريع في بعض كتب الأستاذ علي أدهم لا كلها، لان الكتابة عن كتبه ودراساته كلها أمر يخرج عن الطائفة في مقالة ، ويخرج ببحثنا عن قصده ، لاننا بصدد البحث عن موضوع لا عن اشخاص ، وانما الذي سوغ لنا الحديث عن ادهم والمعداوي ما عناه هذان الناقدان من ظلم وغطم واهمال .

ومن ثم فاننا قد خرجنا من هذا التجوال بمنهج في فلسفة التاريخ والادب والعبقرية ولم نتحدث عن أدهم الناقد بالرغم من دراساته النقدية الكثيرة التي تربي على خمسين دراسة مفصلة عن شعراء وادباء وموضوعات كلها جديدة من حيث النظرة والتفكير .

ومن يتتبع انار أدهم النقدية فإنه لا شك يخرج بمبادئ ونظريات تكون اتجاهها « أدهميا » في النقد ، على هذا المستوى من التفكير في الفلسفة والتاريخ والادب بأجناسه كلها . وكما كان بوجدنا أن نخرج عليها لنرد على من خالفنا في المعداوي بأن أدهم مفكر أكثر منه ناقد، غير ان ودنا ليس بنافع ولا شافع ازاء ضيق المقام ، وسنحيله على مؤلفات ادهم في النقد العربي التطبيقي ليقراها بنفسه منفردا ونحن نثق فيما يخرج به بعد ذلك ، لانه سيصافحنا معتذرا عما بدر منه في شأن روادنا الاعلام .

وعلى الرغم من ضيق المقام فاننا نرى أن هذا القسم من القليلة النقدية بحاجة الى الحديث أيضا عن المبدعين من الشعراء والقصاصين وغيرهم بطريق الاجمال .

وفي هذا الصدد فانني أدلف الى الحديث عن كاتب قرأت نتاجه الروائي في طفولتي فقرأت له « مليم الاكبر ، وويك عنتر ، وملك من شعاع » ومع ذلك فقد انقطعت عني أخباره ولم أدر أين يكون هذا الكاتب الذي ملك علي شغاف قلبي يومئذ . . يوم قرأت ومنتعت نفسي به . . أين صاحب هذه المؤلفات . . أين عادل كامل . . الذي انقطع عن الكتابة ولم يتعد بعد مرحلة شبابه الادبي . . لماذا لم يواصل الكتابة كصديقه في السراء والضراء نجيب محفوظ . .

انه يحكي لنا في مقدمة مليم الاكبر عن كبده المقروحة من جراء ما يحدث في الحقل الادبي وينمثل بقول الشاعر :

ولي كبد مقروحة من يبييني بها كيدا ليست بذات قروح

تسوقهم الى النهوض بها الغريزة التاريخية التي تستغل قوة طموحهم لبلوغ مآربها وادراك غايتها كما تنتفع غريزة حفظ النوع من اذكاء عاطفة الحب وتخننها وسيلة من وسائلها ، فالغريزة التاريخية تنبث طموح العظيم لتحقيق الفكرة ، والغريزة النوعية تهيج عاطفة الحب لبقاء النوع ، فالعظيم والحب كلاهما مخدوع مسوق الى تنفيذ غايات لا تبرز في ساحات تفكيره .

ولكي يستدل على صدق نظريته يضرب مثلا بعبد الرحمن الداخل انه لما كان يجاهد لتسليم عرش الاندلس لم يكن يعلم انه سيكون احد المؤتمنين على ميراث الحضارة وانه لولا تلك الاسرة التي أسسها لكانت الدنيا غير ما هي عليه ، وأن أرض الاندلس ستلقى على يد خلفائه أسعد أيامها وأزهى حضارتها .

والمقياس الذي يقيس به عظمة هؤلاء الرجال هو انهم أدوا مطالب عصرهم وحققوا الفكرة التي كانت تضرب في أحشاء الزمن، وهم يمتازون بخضوعهم لعاطفة مستعلية عليهم غلبة على نفوسهم ، وحول القسوة التي تفيضها هذه العاطفة وتصبها على الفكرة الهابطة على العصر تتركز أكثر الحركات التاريخية ، وتأخذ هذه العاطفة عليهم مسالك نفوسهم فلا يستوطنون راحة ولا يعمون بسعادة وهي السر في الجهود الجارة التي يبذلونها ونراها نحن من فوق طاقة البشر وخارجة عن دائرة الامكان .

ويختم حديثه في هذه القضية مبينا أنه من دواعي اعجابنا هؤلاء العظماء اضطلاعهم بأعباء عصورهم ، ومما يثير حينا لهم وعطفنا عليهم أن نهاية حياة أكثرهم كانت أشبه بالمأساة ، فان الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها فيموت أحدهم في روعة شبابه أو يبقى ليهجره أصدقاؤه وتنفط الاسباب بينه وبين انصاره ، وتحفه طائفة من الخواطر السوداء والافكار المزعجة حتى يشب فيه مخلب الموت مثل عبد الرحمن الداخل . على أنه يدرس في كتابه « ألوان من أدب الغرب » العبقريّة الإسبانية ، فيذهب الى أن اسبانيا لم تقدم للثقافة الأوروبية في عالم النظريات والمبادئ ما يقدها في الصف الاول من غيرها من البلدان الأوروبية . وذلك بالرغم من أنه نبغ في اسبانيا بعض العلماء والفلاسفة ولكن اسبانيا لم تخرج عبقرية من الطراز الاول في العلوم او الفلسفة، ولم تظهر في جنوب جبال البرانس حركة فلسفية ملحوظة او نهضة علمية ماثورة ، .

يعتمد في تحليل ذلك على بعض مفكري الاسبان الذين ذهبوا الى أن السبب في ذلك تغفل الفردية في نفوس الإسبانين، لان تلك الفردية التمدادية تعوق تحول الافكار الشخصية الى مذاهب اجتماعية او حركات فلسفية .

كما أن اسبانيا لم تقدم شيئا يذكر للتفكير المجرد والبحث العلمي، ذلك لان العقل الإسباني بطبيعته قليل الاقبال على التجريدات، ولا يستسيغ في سهولة ويسر التفكير النقي الخالص ، ودأبه في الفن او الادب ان يجعلها وسيلة للحياة ، لان الحياة في رأيه أكبر وأجل من الفن والادب ، وهو يعتمد على الاستجابة للقلب الانساني مباشرة أكثر مما يعتمد على الاسلوب ومذهب الانشاء ، وفرط حبه للحياة يفريه بتجاهل الفضيلة وبعده عن التعصب لها ، لان الفضيلة جزء من الحياة ، والجزء مهما عظم شأنه أقل من الكل ، ولا يستحق من أجل ذلك رعاية خاصة، ولذا لا تلمح في الروايات التي جادت بها العبقرية الإسبانية تفضيلا لاحد الاشخاص على الاخرين ، والجميع عندهم كما يقول المثل الإسباني « أبناء الله » وهذه النزاهة الادبية بادية في كل الآثار العظيمة عند الإسبانين في الادب والفن ، تظلمها في كل صفحة من صفحات « دون كيشوت » وتلمسها في كل صورة من صور فيلاسكيه .

والادب الإسباني - في نظر مفكرنا - يحاول أن يصف الانسان من حيث هو انسان مكون من لحم ودم وأعصاب وعظام ، ولا يطبق أن يحيله « فكرة » باقية، أو يصيره « قالبا » . والفرق بين عبقرية « سرفانتيز » وعبقرية « جيتي » أن « سرفانتيز » كان يعتمد على الحياة

محمد عبد الحلیم عبد الله :

قصاص بارع يترك الاعمال الادبية تمضي الى نفوس القراء وعقولهم دون ما جلية أو ضوضاء ، ولا يعرف القارئ متى صدرت روايته ولكنه لا يتركها اذا ما لمحها دون اقتنائها ، ولكن رواياته لم تلق من الدراسة النقدية ما تستحقه في عالم النقد . ولماذا ؟ لانه لا ينتمي . .

محمد عطا :

قصاص بارع له من انتاجه الوافر ما يقعه في مصاف الرواد في عالم القصة ذات الوعي الوطني ، وناقد بارع ، له مؤلفات في النقد لها اصلها وقيمتها الادبية ، وكتابه « الحركة العاقلة » يشير الى منهج في النقد يدعو الى الايجابية في عالم الفن والادب ، لا الى السلبية التي دعت اليها تعادلية توفيق الحكيم ، وبالرغم من أصالة محمد عطا في قصصه ونقده ومنهجه ، فان نافدا لم ييمم وجهه صوب هذا الانتاج الفخم . . واذا سألت عن السبب لقليل لك انه لا ينتمي . .

نجيب كيلاني :

روائي له من الاصاله ما اجتاز بمبدعته جوائز وزارة التربية وغيرها ، وما جعلت رواياته تقرر على مدارس وزارة التربية ، سل نفسك ان شئت . . أين نجيب في عالم الدراسات النقدية . . يجيبك العاقلون . . انه لا ينتمي . .

واذا ما اجتازنا عالم الرواية والنقد الى عالم الشعر لصدمتنا حقائق مرة تحمل افكارا صدمة واحساسا قريبا باليا ، لان هناك من يدعون التجديد ، ومن يدعون قيادة الحركة التجديدية ، وهؤلاء يريدون للحركة بطبيعة الحال ان تسود . . وكيف . .؟؟ لا طريق اذن الا بان يضربوا صفحا عن أي شعر يقال على غير طريقتهم ، واذا ما تعرضنا لهدم الشعر الذي يخرج عن اطار الحركة التجديدية فللندر به ، أو لظهور استاذية شاب على ذلك الشاعر بعد الموازنة المنحرفة عن القصد . . وتأسيسا على هذا سننظر مع القارئ في أعمال بعض الشعراء كأمثلة لغيرهم لم يلقوا من العناية ما يلقاه شباب ناشئ في السن والشعر معا . .

محمود حسن اسماعيل :

شاعر جبار مزود بطاقة شعرية لها من القدرة على ان تحيل كل تجربة الى احساس شعري ضخم ، ومن هنا سماه الدكتور مندور « وحش الشعر » له عدة دواوين سمعت بها العربية في ميدان الشعر ، والتهمها المتأدبون التهاما ، وغزت أسواقنا الادبية بمعناها الواسع ، ومع ذلك ، فان أحدا من النقاد لم يهتد الى دواوينه لانهم يلبسون على أعينهم غطاء كثيفا ، كان يسميه الاقدمون « طاقة الاخفاء » وذلك لكي يحولوا بين أعينهم وبين رؤية شعره . .

العوضي الوكيل :

له سبعة دواوين كلها جيد ، وله باب اختص بريادته تناول به شعراء العربية ومفكريها بالشعر النقدي ، حيث رسم فيه الشخصيات التي تناولها وأعطى فيها حكما نقديا ، وهو باب فريد أدخله العوضي الوكيل في أدبنا ونقدنا على سواء تحت عنوان « رسوم وشخصيات » ومع ذلك يبدو أن النقاد في اجازة عن تناول هذا العمل الرائع ، لانه لا ينتمي . .

عبد الرحمن صدقي :

فنان محلق في سماء الشعرية ، وناقد فني يجاري اعلام الفن العامين ، له دراسات تتسم بالدق والتميز ، ومع ذلك فان نقدا لم يوجه الى شاعرته يستحق الذكر ، ولا الى دراساته بالرغم من انها تربي على عشر ، ولماذا أيها النقاد . .؟؟ لانه لا ينتمي . .

ولقد تفرحت كبده من لجان الجوائز الادبية وغيرها ، وما يعانیه من البيئة الادبية بصفه عامة ، وما يكتب في المجلات الادبية بصفه خاصة . ومن هنا فاننا نراه يكتب مقدمة نقدية لرواية « مليم الاكبر » في مائة وثمانية وعشرين صحيفة ، تفيض بالمرارة والالام ، مما يعانیه الفن والفنانون مع من نصبوا من أنفسهم مهيمنين على النشاط الادبي والثقافي في بلدنا .

ولقد عالج في هذه المقدمة جميع المشاكل النقدية التي كانت تثار وقتذاك في عام ١٩٤٤ ، وهو العام الذي أصدر فيه « مليم الاكبر » ، واتسمت معالجته لهاتيك المشاكل بالسخرية التي برع فيها صاحبها اذ رد على كل مأخذ من المآخذ التي كانت تصوب الى القصص والشعر ، وهي مقدمة كان بودنا أن نعرف عليها القراء ، ولكن ضيق المقام الذي أصبحت اضيق به كل الضيق هو الذي جعلني أقول عنها ما يقسوله الدارس لها في نهاية دراسته حينما يتحدث عن الاثر الذي تركته في نفسه ، فهي من عمل فنان يعالج مشاكل النقد ترفده في ذلك الروافد الطبيعية للناقد الحق ، وهي الاصاله والتجربة والثقافة والضمير الادبي . أما من حيث طاقته الإبداعية في قصصه فيحدثنا عنه الاستاذ سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات حينما نقد « مليم الاكبر » .

« ان قصة مليم الاكبر هي قصة الصراع بين الطبقات مصبوبة في قالب فني ، فهي على هذا من أدب « الوعي الاجتماعي » الذي يدعو اليه جمهور من المفكرين في جميع أنحاء العالم . . وليس معنى انها من أدب الوعي الاجتماعي أنها تفقد بذلك السمة الفنية الاصيله ، لان المؤلف يبدو في قصته هذه صاحب موهبة فنية لا سبيل الى الشك فيها ، موهبة العرض ، والتنسيق ، ورسم الملامح والشخصيات وادارة الحوادث والمفاجآت . . فهي من هذه الناحية تستوفي صفات القصة الجيدة على وجه العموم . ثم هي تحمل طابع مؤلفها بوضوح في نواحي النص فيها ونواحي الكمال ، فالؤلف صاحب طريقة مطبوعة وأسلوب مرسوم ، وهذا يقرر وجوده الفني في عالم القصة بلا جدال . .

والاستاذ قطب هو الناقد الذي اعترف له نجيب محفوظ في الحفلة التي أقيمت لتكريمه بلوغه الخمسين من عمره ، اعترف له محفوظ بأنه والمداوي يرجع اليهما تقدمه في الفن ، لانهما كانا يتناولان اعماله الادبية بالنقد والدراسة المستأنية الفاحصة ، فرفاه قيمته الادبية والفكرية ، واطلعه على نفسه .

واذا صح ان عادل كامل زميل لنجيب محفوظ وصديق ، من حيث العلاقة الانسانية والاتجاه الادبي ، واذا صح ان قطبا تناول اعمال عادل كامل وقال فيه ما قال ، كما تناول اعمال نجيب محفوظ . . اذا صح هذا وأذآ فلا تكون على حق بان عادل كامل قيمة أدبية مطلقة . . وما الذي جعله يانف من حياتنا الادبية والفكرية حتى يطلقها تلاقا بانسا لا رجعة فيه ، ويعمد الى احتراف التجارة كما قيل لي . .

أغلب الظن أن القبلية النقدية لا يمكن ان تصنع أسوأ مما صنعت مع صاحب المليم الاكبر وملك من شعاع وويك عنتر . ومن ثم فان انقطاعه عن العالم الادبي له مبرراته التي أومن بها كل الايمان . . والتي آمل لوطني أن يبرأ منها ومن مرتكبيها الحمقى .

والقبلية النقدية في صميمها وأسوتها هي التي تدفع بنقاد القبائل الا يتعرضون بالدراسة الجادة المفيدة لمن لا ينتمي اليهم . وللتدليل على ذلك نذكر بعض الروائيين لسائل انفسنا عن الدراسة التي تعرضت لاعمالهم الادبية . .

طاهر الطناجي :

ماذا اصابت قصصه من عناية النقاد ، معروف ان الرجل ينتسج في عالم القصة والتاريخ والشعر ، بل لقد طلب منه العقاد في الصور الصادر في ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٧ أن يعطي للقصة والتاريخ بعض وقته لينبع . . فاین هو من دراسات نقادنا الاجلاء . ولماذا لم يدرس . . لانه لا ينتمي . .

احمد مخيمر :

الجديدة» كانوا يتملقونه ، فلما سافر الى لندن ورجع لا يعرف أحد منهم عنه ولا عن نتاجه الشعري شيئاً كان ديوانه قد أكلته الأرض ولم يبق شيئاً ..

أما عالم الفكر فان للقبليّة النقدية فيه أمراً عجباً ، لان الذي لاشك فيه أن هناك رواداً أثروا الوطن على انفسهم فحملوا أرواحهم على أكفهم، وراحوا يصيرون المواطنين بما يحاك لهم من ظلم وجور ، وما يشتملون عليه من امتهان للانسانية ، وراحوا يدفعون عن الناس الكهانة الدينية التي كان المستعمر وحفدته من أبناء العرب يستخدمها للبقاء في البلاد ، لا شك أن في مقدمة هؤلاء الاستاذ خالد محمد خالد الذي أربت كتبه على نيف وعشرين كتاباً كلها جديد في بابها ، بل لقد وصل الكتاب العربي ممثلاً في كتاب خالد أرقى ما وصل اليه في عصوره الزاهية اذ طبع من كتابه « من هنا نبدأ » عشر طبعات ، فلم لا نرى الدارسين يتناولون أعماله الفكرية بالدراسة والتحصيل ، وما هي الوظائف التي تليق لمفكر مخلص مثل خالد محمد خالد . أغلب الظن أن الوطن كان يستفيد من قيادته الفكرية والادبية على سواء ، ولكن القبليّة في صميمها وأسوئها هي التي خولت للنقاد أن يتجاهلوا ذلك النتاج الجبار الذي لن يخبو ضوءه في يوم ما من الايام ..

والذي نريد ان نقوله الان اننا لا ننفي أن هناك دراسات قامت حول بعض الادباء على أيدي بعض الزملاء من الصحفيين ، لاننا لم نقصد بالدراسة هذا اللون من التحية التي تقدم كاعلان للكتاب او صاحبه، وانما نقصد الدراسة العلمية التي يكون لها وزنها وقيمتها في عالم النقد .. والذي نريده كذلك أننا نود أن يلقى المفكرون من الدولة تكريماً بأن توليهم زمام القيادة الفكرية لانهم اخلص عليها من حملة العكايز والكيزان الذين سنعرض لهم في القسم الثاني من هذا الفصل .. كنا نود ذلك لاننا نحس بالظلم عليهم ، وما أشنع الظلم وأبشعه حين يكون على مفكر أو ناقد أو اديب .

عبد الحى دياب

شاعر عملاق ، يبدع الان لنفسه ، ولا يحتفي بالنشر أو الشهرة، نه ملاحم طويلة لم يكتب لها البعث على صفحات السورق في كتاب ، تلميذ لابي العلاء في لزومياته ، حيث أبدع شعراً تحت عنوان «لزوميات مخيمر» .. وهو غير معروف الا لجيله والدارسين لان عناية النقاد ضلت طريقها وهي متوجهة الى قصره في عالم الفن لتقف على باب كوخ لشاعر حر يلفظ انفاس طاقته على ابداع قصيدة من الشعر الجديد ..

عبد بنوي :

وفيه تتضح القبليّة النقدية ، لانه كان ينظم الشعر الملتزم الاطار التقليدي ، فلما وجد اغفال النقاد لهذا اللون عبل عنه بعض العدول ليقول في الشعر الجديد قصائد ضمنها ديوانه الاول ، فالتفت اليه نقاد الشعر الجديد ليحطلوا منه شاعراً عبقرياً ، ولكنه لم يقتنع فيما بينه وبين نفسه .. فعاد الى الشعر الملتزم قافية موحدة او متنوعة فاذا بالشاعر الذي كان يدرس بالامس لا يعرف عنه شيء ، كان بينه وبين النقاد موحدة .. أتاحت لهم ان يتجاهلوا شعره .. لانه الان لا ينتمي ..

فوزي العنتيل :

وماذا نقول في فوزي العنتيل ، ثالث ثلاثة ملأوا سماء المجلات الادبية في العقد الخامس وأوائل السادس من هذا القرن في مصر ، هو والفيتوري وكمال نشأت ، ومع ذلك فانه بالاضافة لما يلاقيه في العمل من جراء القبليّة النقدية على لون اخر ، فان النقاد لم يدروا ان له ديواناً يسمى « عبير الارض » ، يوم كان يتصرف في « الرسالة

دار الاداب تقدم :

((الشاعر القروي))

(رشيد سليم الخوري)
في ديوانه القومي المنتظر

الذعر صابر

● الشعر الوطني ، الشعر المشرب بروح الوطنية العربية الكبرى ، هو هو الشعر الذي يلزمننا اليوم . وقد جئتنا أنت به ، وجئتنا بالحلم بدل الدموع .

امين الريحاني

● كل حرف من منظومك شواظ من نار ، وكل بيت عرينة يزأر فيها أسد غضوب . فلبست مبالغا اذا قلت أنك شاعر الوطنية الذي لا يتعلق به درن . وان لك في

عنى كل عربي صريح منة لا تجحد .

امين ناصر الدين

● أنك شاعر العروبة منذ وجد العرب ، فلم يتفق ان وجد شاعر اخلص للعروبة وجاهد في سبيلها وتفزل بفضائلها مثلك .

احمد الصافي النجفي

● انت ذو روح وثابة ، خدمتها قريحة وقادة وشاعرية عالية ، استطعت ان تترجم بها ما يضيق به صدرك بأفصح اسلوب وابلغ تعبير فجاءت أعاصيرك بما يتعاصى على البلغاء ويتمنى أن يلهم بمثله أشعر الشعراء .

فارس الخوري

● الله الله للشعر الموفق في أوسع ما يقع معنى التوفيق الشعري . فهنيئاً للعصر بديوانك ، بل للملايين العرب في كل قرار لهم على جنبات العمور .

امين نخله

● اعليت شأن الادب في المهجر ، وبيضت وجه العروبة ورفعت قدر البرباره الى مستوى العواصم الخالدات . فلبنان مديون لك بالشيء الكثير .

بولس سلامة

الثلث ٣٥٠ قرشا لبنانيا

صدر حديثاً